يحدث الآن...
ألم نقل ذات يوم: «هيهاتَ أنْ يتكرّر ذلك»؟

THE HANGAR الهنغار

أليسيو رومنزي

منذ العام ٢٠٠٥، يعمل أليسيو رومنزي مصوّراً صحافياً مستقلاً وقد نَشَرَت صوره كبريات المطبوعات العالمية من مثل **التايم**، **الواشنطن بوست**، **إل كوريير ديلّا سيرا**، **النيويورك تايمز**، **الغارديان** وسواها.

بخلاف مصرَ وليبيا، ما إنْ يصلَ المرءُ إلى سوريا حتى تمتلىء رئتاهُ برائحة موت دفين، ويستبدُّ به الشعورُ بأن «الأَعْظَمَ» لم يقعْ بعد... هذا ما وَجَدتني أوثّقه وأرويه. عملي كمصور أن أخبرَ الآخرين من خلال صوري بما يجري. ولكن في سوريا لم أشعر بأنني أقومُ بعملي فقط... في سوريا تَمَلّكني الشعورُ بأنني أؤدّي واجباً أخلاقياً... بأنني أصوّر، أولاً، على نيّة الناس الذين أصوّرهم وليس على نيّة قرّاء الصحف التي قد يعنيها أن تنشر صوري.(*)

شأن الكثيرين من زملائه، ما هي أن بدأ «الربيع» يدب في أوصال العالم العربي حتى يمم شرقاً فزار مصر وليبيا وساهم في توثيق ثورتيهما؛ وفي شباط من العام الحالي وجد نفسه مقوداً إلى سوريا، وعلى وجه أخص إلى مهوى القتل والقتال حينذاك: حمص والقصير.

في سوريا أنفق أليسيو رومنزي معظم وقته في القُصَير ــ وهي بلدة في غرب سوريا تقع في محافظة حمص. أما الصور التي التقطها هناك فتوثق الحياة اليومية كما القتال وآثاره على الناس، المقاتلين منهم والمدنيين.

في الأيام الأولى، كان الوضع هادئاً فانشغلت بالتقاط صور عن الحياة اليومية، وهذه الصور تشكل قسماً كبيراً من حصادي هناك؛ ولكن بعد يومين...

في خضم القتال، أخذ رومنزي يتآلف مع الوضع الجديد، ويزيد من معارفه في أنواع الأسلحة المستخدمة وتقنيات القتال، وألفى نفسه يُحَكّمُ سباقاً مُتّصلاً بين رغبته في توثيق ما يشاهده وبين غريزته البشرية بالبقاء؛ ولعل صوره تعكس هذا السباق اللاهث، ومن هنا فهي تقول وحشية العنف البالغة بمقدار ما تلتقط انفعالات الناس، كباراً وصغاراً، في هذه اللحظات القصوى. والحق أن رومنزي لا يُخفي قناعته بأن الناس، في هذه اللحظات القصوى، يُسقطون عن وجوههم كلّ الأقنعة التي يوارون أحاسيسهم وراءها في الأوقات الأخرى... ففي اللحظات القصوى تتلاشى الفروق بين الخير والشر، الصواب والخطأ، ولا يبقى سوى الوجه البشري في عريه الكامل...

في تلك اللحظات، عندما يُطلق الناسُ النارَ أو يفرّون، عندما يصابون بالرصاص، أو يقتلون، يتجلى الكائن البشري على حقيقته ـ يُسفر الوحشُ الكامن فينا عن نفسه...

خلال إقامته السورية، خبر رومنزي أيضاً العلاقة المعقدة بين أفراد «الجيش السوري الحر» وآلة التصوير. فإذ رفض الكثر من أفراد هذا الجيش الكشف عن وجوههم خشية التعرّف إليهم وتعرّض أسرهم للاعتقال أو لما هو أسوأ منه، فلقد سلم آخرون بالدور الهام الذي يقوم به رومنزي وزملاؤه في تعريف العالم بما يدور هناك، ولكن

لم يأخذونا [«أفراد الجيش السوري الحر»] قط إلى مخاضات القتال... أقلّه، لم يرغبوا بأن أذهب إلى هناك... لم يرغبوا في أن نَطّلع بأنفسنا على [كل شيء]...

هيهات: اسمُ فعْل ماض مَعْنَاهُ «بَعُدَ»؛
مثاله: هَيْهاتَ أنْ تَعودَ الساعةُ إلى الوراء.

مؤثرين النـأي بأنفسهم عن الاعتـراف بمشاركتهم الفعلية بمـا يجـري؛ علـى أن المشتـركَ بين هـؤلاء وأولئـك حثُّهم الـدؤوبُ الصحافييـن على تصوير «الجيش السوري الحر» والشعب السوري كضحايا.

في ليبيا، كان هناك مقاتلون في مواجهة مقاتلين آخرين. هنا، يتواجه مقاتلون من الجانبين أيضاً ولكن معظم القتلى من المدنيين... الناس هنا يُقتلون خلال حياتهم اليومية... تخيل قذيفة تسقط في الشارع ولا يُكتب لهذه الأم، مثلاً، التي ذهبت تتسوق لإطعام عائلتها أن تعود إلى المنزل... هل تتخيل ردّة فعل الأسرة عندما يبلغها النبأ؟ كيف تريد لعقل بشري أن يستوعب بأن السبب الوحيد هو أن تلك المرأة وجدت نفسها في المكان الخطأ في اللحظة الخطأ... لم تشهد حمص قتالاً بكل معنى الكلمة... في معظم الأحيان اقتصر الأمر على القصف الأعشى...

فـي سوريـا رأى رومنـزي المـوت أكثـر ممـا رآه في مصـر وليبيـا. فعلـى مـا يظهر مـن صُـوَره، لا تُميز القذائـفُ بين جنود «الجيش السـوري الحر» والمدنييـن السورييـن، ومـن ثـم فـإن حظـوظ الإصابـة والموت متساوية بين المدنيين والمقاتلين. وليس اتساع نطاق العنف، فحسـب، مـا تشهـد عليه الصور التي التقطها خلال زيارتـه حمص، بل الافتقـار الكبير إلى المـوارد والمهارات التي يسعها بلسمة ما يتسبب به العنف من جراح ومن أذى.

بعـد يوميـن من القصـف الكثيـف، وجـد رومنـزي نفسه، كمضيفيه من الناشطين ومن أفراد «الجيش السوري الحر»، لا يـكاد يستطيـع مغـادرة المركـز الإعلامي. بعـد تصوير المستشفـى الميدانـي واللاجئين المكدسين في الملاجـئ طلبـاً للنجـاة، قرر أن الأمور باتت أخطر مما يستطيع تحمله، فعزم علـى المغـادرة بـأي ثمن وهكـذا كان حيـث تمكـن بمساعدة بعض الأصدقاء من العودة إلى القصير.

كانت لحظة مغادرتي أصعب اللحظات إطلاقاً... فإذ عزمت على مغادرة حمص، عزمت أيضاً، على نحو ما، على على أن أتخلى، مع قلة حيلتي، عن هؤلاء الناس... هؤلاء الناس الذين ارتضوا البقاء هناك رغم أنه كان بوسعهم، هم أيضاً، أن يغادروا ويفروا... كان كل عتادي عدد من الكاميرات وعدد من المفكرات أدوّن فيها بعض الوقائع. لم أتمالك من الشعور بالإثم...

لعل الفتـرة التـي قضاها رومنـزي فـي حمص والقصير، كانـت قصيرة بحسـاب الزمـن السوري المنحدر شيئـاً فشيئاً إلى مزيـد مـن العنـف ولكـن الصـور التـي التقطتهـا عدسـتـه، علـى عجلتهـا البادية للعيان أحيانـاً وتركيزها أحيانـاً أخرى على مواطن الألـم واليأس، تقول أيضاً إن الحياة، حتى في تلك اللحظات القصـوى، لا تملـك سوى أن تمضي قدمـاً، وتقول كذلك أية صلـة عاطفيـة يمكـن أن تنشـأ بين عدسـة وسكان صورها...

إن رواية أكبر قدر ممكن من التفاصيل أمر في غاية الأهمية... في معزل عن التفاصيل، لن يشعر العالم بواجبه الأخلاقي حيال ما يجري في سوريا. نعم... إن رواية ما يجري يكاد أن يكون الأمل الوحيد بأن يُوضع حدّ لهذه الفظيعة... أنام وأصحو على أمل أن يتوقف هذا العنف... لا سيما أن معظم الضحايا هم من المدنيين، لا غرم عليهم ولا إثم.

لا رأي لي بالتدخل العسكري، ولكن الأكيد أنه لا بد من وضع حد لهذه المعرة!

(*) المقاطع الماثلة بحرف صغير مختارات من مقابلة أجرتها، مطلع حزيران ٢٠١٢، مونيكا بورغمان مع ألسيو رومنزي.

الافتتاح: السادسة من مساء الجمعة ٢٩ حزيران ٢٠١٢
يومياً، حتى ٢٩ تموز ٢٠١٢، من الأربعاء حتى الأحد
(من الثانية بعد الظهر حتى الثامنة مساءً)
الهنغار ـ أمم للتوثيق والأبحاث
حارة حريك، قرب مسجد الإمام المهدي
www.umam-dr.org • www.thehangar-umam.org